الثقافة الإسلامية

(١٦)

حضور القلب في الصلاة

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات منتقاة من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ١٦ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... حضور القلب في الصلاة
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الثانية: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة:...... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾

(طه/ ١٤)

حضور القلب للصلاة

ما هي الغاية من الصلاة؟ وكيف نصلي؟

سؤالان يؤول الثاني منهما إلى الأول؛ فان الكيفية الصحيحة للصلاة هي التي تحقق الغاية من الصلاة.

وفي الجواب على السؤال الأول أقول: إن (الذكر) هو الغاية من الصلاة.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾.

فالصلاة إذن ذكر، والغاية من الصلاة الذكر. والطريقة الصحيحة للصلاة هي التي تحقق الذكر في الصلاة، وتُنشّط الذكر في القلب.

ولا يتأتى للإنسان الذكر من دون (حضور القلب) في الصلاة، فإنَّ الذكر هو الحضور، وهو ضدّ الغفلة والغياب، ولكي يحقق الإنسان في صلاته حال الذكر لابدَّ له من تحضير القلب، فلا يتأتى للإنسان الذكر في الصلاة من دون حضور القلب.

وكما إنَّ (الذكر) و(الغفلة) حالتان متقابلتان، كذلك (حضور القلب) و(غياب القلب)، ولا نكاد أن نفهم أحدهما

من دون الآخر.

إذن نتحــدث أولا عــن (الغيــاب) ثــم نتحــدث عــن (الحضور).

غياب القلب:

غياب القلب في الصلاة هـو انشـغال القلـب عـن ذكـر الله وعمّا في الصلاة من الركوع والسجود والقيام.

فيؤدّي المصلّي هذه الأعمال ويذكر الأذكار جميعاً، وهو غافل عنها تماماً.

وهو آفة الصلاة والذكر. فلا شيء يضر بالصـلاة، ويفسـد الذكر مثل الغفلة والغياب.

وسـبب الغيـاب هجـوم الأفكـار والخـواطر علـى قلـب المصلّي أثناء الصلاة، وشرود القلب، فـي هـذا الهجـوم، عـن ذكر الله تعالى في الصلاة.

والسبب في هجوم الأفكار والخواطر على قلـب المصـلّي أثناء الصلاة، والسبب في شرود القلب عـن الصـلاة هـو عـدم وجود تحصينات للقلب... كأي هجـوم آخـر يقـوم بـه العـدو على مراكزنا ومعا قلنا.

والقلب مركز ذكر الله، ومعقله، فإذا كان القلب مزوّداً بتحصينات مكافئة لهجوم العدو يقاوم القلب هذا الهجوم، ويحبطه، ويبطله، وإذا كان القلب ضعيفاً في مواجهة العدو يتعرض لا محالة لغزو واسع من ناحية الأفكار والخواطر التي تهجم عليه.

ونتيجة هذا الهجوم شرود القلب عن ذكر الله في الصلاة.

وهو كما ذكرنا آفة الصلاة والذكر. وهي آفة واسعة، يكثر ابتلاء الناس بها في صلاتهم، وليس علاج هذا الابتلاء في الاعتزال عن الحياة ونشاطاتها وساحاتها، وإنما علاجه في تحصين القلب.

فان القلب إذا كان ضعيفاً قد يشغله ما لا قيمة له من متاع الدنيا وزينتها، كالساعة التي على معصمه والقلم الذي بيده.

وإذا كان القلب قوياً، محصناً، ضد هذه الهجمات، فلا تخترقه الدنيا وما فيها من ملك وسلطان.

تقول عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا

حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه(١).

وليس معنى ذلك أن يتعرض الإنسان للدنيا وفتنها وإثاراتها، ويقبل عليها... فقد كان رسول الله ﷺ يكره ذلك، عن حلال، ولا يحرّمه، وهو في قمة المناعة والحصانة. فالعلاج إذن في تحصين القلب، ووقايته أولا، ثم في تجنب مغريات الدنيا وإثاراتها، ما أمكن الإنسان ذلك، ولا يفقده دوره في خلافة الله على وجه الأرض. فإنه لابد للإنسان من الحضور في ساحة الدنيا ليؤدي دوره في خلافة الله على وجه الأرض.

وهذه الوقاية والحصانة هو معنى (الزهد) الذي يرغّب إليه الإسلام.

وتفسير (الزهد) الذي يرغّب إليه الإسلام بـ (الكيف) أقرب منه إلى تفسيره بـ (الكم)؛ فان الزهد هو أن لا تستغرق الدنيا اهتمامات الإنسان وقلبه، وليس أن لا تنال يده من الدنيا شيئاً.

---

(١) أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٨ و ٢٣، ومستدرك الوسائل ١: ٢٦٤.

فقد يملك الإنسان من الدنيا الكثير، عن حلال دون أن تستغرق الدنيا قلبه واهتمامه، وبين هذا وذاك فرق.

والذي يدعو إليه الإسلام هو الزهد بهذا المعنى، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ كان يكره التعرض للدنيا ومتاعها وطيّباتها عن حلال، ولا يحرّمه، امعاناً في الاحتياط من هذا الابتلاء الذي يشغل الإنسان عن الله تعالى وذكره، ويصيب قلبه بالشرود والغفلة.

ومن عجب أن تحصين القلب يتم بالذكر والتقوى، والذكر هو أحد العاملين الرئيسين في تحصين القلب، فيكون تحصين القلب بالذكر من أجل الذكر.

عوامل تحضير القلب للصلاة:

في مقابل الغياب والشرود حضور القلب، وهو حالة الانتباه والذكر والانشداد إلى الله تعالى، بخلاف حالة الغياب التي هي حالة النسيان والشرود.

وعوامل تحضير القلب للصلاة أربعة أمور:

(التحصين)، (التفريغ)، (والوعي والتعقل) و(التفاعل) بالتوضيح التالي:

١- تحصين القلب عن الانشغال بغير ذكر الله.

٢- تفريغ القلب عن الشواغل التي تشغل المصلي عن صلاته.

٣- وعي صفات الله الحسنى الجلالية والجمالية. وهو أمر غير تفريغ القلب فقد يفرّغ الإنسان قلبه عن كل شاغل، ولكن لا يعي من أسماء الله وصفاته الحسنى وجلاله وجماله غير أمر بسيط، ساذج على قدر سذاجة معرفته بالله تعالى.

٤- التفاعل مع الخطاب الإلهي في الصلاة.

وهذا التفاعل له مظاهر مختلفة.

منها الخشوع في الصلاة، والتعظيم، والتهيب، والخوف، والرجاء، والحياء.

فإذا استجمع الإنسان هذه العناصر الأربعة أمكنه الله تعالى من تحضير قلبه للصلاة، وفتح الله عليه من كنوز الصلاة ما لا يدركها و لا يتلقاها الذين يقيمون الصلاة في حالة الغفلة والشرود النفسي.

الصلاة رحلة إلى الله:

والى هذه الحقيقة يشير الحديث الشريف: «الصلاة معراج

المؤمن»[١].

وفي الصلاة يعرج الإنسان إلى الله. ومهما كان عروج الإنسان في صلاته اكثر كان اقرب إلى الله تعالى.

واقرب ما يكون العبد في صلاته إلى الله حالة السجود. والى هذا المعنى تشير آية السجدة من سورة العلق: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾[٢]. وروي عن الإمام الصادقعليه السلام: «اقرب ما يكون العبد إلى الله عزّ وجل وهو ساجد»[٣].

وغاية هذه الرحلة هو الله تعالى، ويمر الإنسان خلال هذه الرحلة على مشاهد ذات بهجة من الشكر، والذكر، والاستغفار، والدعاء، والقنوت، والاستعانة بالله، والعبادة، والتكبير، والركوع، والسجود، والقنوت، والتشهد، والتسليم، والثناء، والمدح، والتوحيد، والاستغفار، والتضرع، والخشوع...الخ.

وكل واحد من هذه المشاهد روضة بهيجة من رياض

(١) الاعتقادات للمجلسي: ٣٩، تفسير الرازي ١: ٢٦٦.

(٢) العلق: ١٩.

(٣) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٩ح٦٢٨.

الذكر والعبودية، يعرف قيمتها، وما فيها من لذة وقُرّة عين أولئك الذين رزقهم الله وعي هذه المباهج واللذات العقلية والروحية. وللأَسف أن يمر الإنسان بهذه المشاهد البهيجة، وهو غافل عنها، شارد منها، لا يسمع ولا يرى من مباهجها شيئاً، ولا يستنشق شيئاً من عبيرها.

والحضور في هذه المباهج العقلية والروحية يتطلّب (الوعي والتعقل) **أولاً**، و(التفاعل) والتعاطف الروحي **ثانياً**.

وهما لا يتحققان من دون أن يفرّغ الإنسان قلبه عن كل شيء يشغله عن ذكر الله، ولا يتيسّر للإنسان هذا الأخير دون أن يحصّن الإنسان قلبه عن الانشغال بغير ذكر الله.

فإذا جمع الله تعالى له هذه الأربعة وجد الإنسان في الصلاة لذة لا تعادلها لذة، وبهجة لا تعادلها بهجة، ولا يكاد يشغله عن صلاته وذكره شيء، فلا يجد الإنسان في هذه الحالة امراً ألصق بقلبه من الذكر والصلاة حتى يشغله عنها. وعندئذ يتفاعل الإنسان لا محالة مع صلاته بأنواع من التفاعل من الشوق، والأُنس، والخوف، والرغبة، والرهبة، والحياء، والتعظيم، والخشوع، والشكر، والاستغفار.

التفاعل أمارة حضور القلب

والتفاعل نتيجة حضور القلب في الذكر والصلاة، وفي نفس الوقت أمارة حضور القلب في الصلاة.

وعن هذا التفاعل يقول أميرالمؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام في خطبة المتقين:

«وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وأبصارهم فاقشعرت منها جلودهم ، ووجلت منها قلوبهم ، فظنوا أن صهيل جهنم وزفيرها وشهيقها في أصول آذانهم .

وإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت أنفسهم إليها شوقا وظنوا أنها نصب أعينهم»(١).

فضيلة وقيمة حضور القلب

من المحقق أن قيمة الصلاة بحضور القلب، وليس للمصلى من صلاته إلاّ ما أقبل عليها بقلبه. وقد دلت الروايات على ذلك.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كم من قائم حظه من قيامه النصب

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٣٤٣.

والتعب»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا أقمت للصلاة فعليك بالإقبال على الله، فإنّما لك من الصلاة ما أقبلت عليه بقلبك»[٣].

وعن جعفر الصادق عليه السلام: «لا تجمع الرغبة والرهبة في قلب إلاّ وجبت له الجنة، فإذا صليت فاقبل بقلبك على الله عزّ وجل، فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عزّ وجل في صلاته ودعائه إلاّ اقبل الله عزّ وجل عليه»[٤].

وقد تكون الصلاة فارغة تماماً من كل ذكر وإقبال على الله، وليس فيها من الصلاة إلاّ الشكل والمظهر... فيضرب بها وجه صاحبها.

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من الصلاة لما يقبل

---

(١) تفسير الغزالي ٢٣: ٧٧.

(٢) مستدرك الوسائل ٣: ٥٧ ح٦ عن عوالي اللآلي ١: ٣٢٥ ح٦٥، تفسير الغزالي ٢٣: ٧٩.

(٣) أسرار الصلاة للشهيد الثاني: ١٨.

(٤) من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٩ ح٦٣٢.

نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإنَّ منها لما يُلَفُّ كما يُلَف الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك»[١].

لم يقبل اللّه له صلاة خمسين سنة:

وقد يصلّي الإنسان خمسين سنة فلا يتقبل الله منه صلاةً خلال خمسين سنة، فما اكثر حرمان هذا الإنسان وما أشقاه.

عن الصادق عليه السلام: «والله انه ليأتي على الرجل خمسون سنة، وما قَبِل الله منه صلاة، فأي شيء أشد من هذا»[٢].

والصلاة التي لا يتقبلها الله هي التي لا ينتفع بها صاحبها. وبين القبول والنفع صلة وعلاقة، فكلّما كانت استفادة المصلّي من صلاته اكثر كانت الصلاة أقرب إلى القبول. والفائدة التي يجنيها المصلي من صلاته هي الإقبال على الله، والذكر، وانفتاح القلب على الله. والإحساس بالحضور بين يدي الله تعالى قائماً وراكعاً وساجداً.

---

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٦٣٩.

(٢) ميزان الحكمة ٢: ١٦٣٦.

وكلما كان حظ الإنسان من هذا الإحساس والانفتاح والإقبال على الله أكثر كانت صلاته اقرب إلى القبول من الله.

من ضيّع صلاته ضيّعه اللّه:

ومن الناس من يحافظ على صلاته كما يحافظ الإنسان على ما عزّ وغلا من متاعه، فَيُحْسُن قيامها وركوعها وسجودها ويقبل فيها على الله، ويُحْسِن أداء أذكارها وينقطع فيها إلى الله، ويتخذها رحلة إلى الله... اولئكَ يحفظهم الله.

ومن الناس من يُضَيِّعُ صلاته، ولا يحفظ حرمتها، ولا يعطيها ما تستحق من الاهتمام والإقبال، والإنشداد، ويصلي، وهو منصرف عن صلاته... أولئك يُضَيِّعُهُم اللّه.

وفي الحديث عن الإمام الصادقعليه السلام: «إن العبد إذا صلّى الصلاة في وقتها، وحافظ عليها ارتفعت بيضاء، نقية، تقول: حفظتني حفظك الله، وإذا لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها ارتفعت سوداء مظلمة تقول: ضيعتني ضيعك الله»[١].

---

(١) من لا يحضره الفقيه للصدوق ١: ٢٠٩ح٦٢٧.

المعادلة بين الإقبال والقبول:

إذن قيمة الصلاة عند الله تعادل إقبال المصلي فيها على الله، فكلما يكون إقبال الإنسان على الله في صلاته أكثر، تكون قيمة الصلاة عند الله اعظم.

روي عن رسول الله ﷺ: «إن العبد ليصلّي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»[١].

وجوب الإقبال على الله في الصلاة:

يذهب بعض الفقهاء إلى وجوب الإقبال في الصلاة، وإن لم يكن شرطاً في صحة الصلاة؛ فقد أمر الله تعالى بذلك في كتابه يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾.

فقد أمر الله تعالى بالصلاة من اجل الذكر وعليه فإن الأمر بالصلاة أمر بالذكر في الصلاة، وهو بمعنى الاقبال على الله في الصلاة.

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٦٣٧.

ونهى الله تعالى عن الغفلة ﴿**وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾[(١)].

وابرز مصاديق الغفلة المنهي عنها الغفلة في الصلاة. و يعلل القرآن النهي عن الصلاة في حال السكر. بقوله تعالى: ﴿**حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**﴾[(٢)]. . فلابدّ إذن أن يعلم الإنسان ما يقوله في الصلاة من القرآن والذكر والتسبيح والحمد.

(١) الأعراف: ٢٠٥.

(٢) النساء: ٤٣.

مناهج تحضير القلب في الصلاة

نتحدث أولا عن المناهج الأساسية والأولية لتحضير القلب في الصلاة، ثم نتحدث عن المناهج الفرعية والثانوية. وقد سلك أصحاب العرفان مناهج مختلفة في تحضير القلب للصلاة، نذكر أهمها:

١ـ منهج الاهتمام

وليس من شك أنَّ الاهتمام من عوامل الإِنتباه، وكلما يكون إِهتمام الإنسان بأمر أكثر يكون إنتباهَه إليه أكثر. وبالعكس القضية التي لا تأخذ من اهتمام الإنسان لا ينتبه إليها الإنسان. ولما كانت الدنيا اكثر اهتمامات الناس فإنها لا محالة تشغلهم عن صلاتهم، وتصرفهم عنها، فإذا اقبل الإنسان على صلاته يبقى قلبه مشغولا بما يهمه من أمر دنياه، فلا يتحقق منه إقبال القلب الذي هو روح الصلاة.

وهذه قضية واضحة، فإنّ الإنسان إذا واجه أمرين وكان اهتمامه إلى أحدهما اعظم من الآخر انصرف إليه بقلبه، وان كان مشغولا بالآخر بجسده.

وإنما ينصرف الناس عن صلاتهم إلى ما يهمهم من أمور دنياهم لأنَّ اهتمامهم بها أعظم من اهتمامهم بالصلاة؛ فإذا

وعى الإنسان قيمة الصلاة وما أودع الله تعالى في هذه الرحلة من مباهج ولذات للعقل والروح ومن الثواب في الآخرة، ووعى ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1]. أنقلب الأمر لا محالة، وانصرف إلى صلاته وذكره.

إذن تحضير القلب يتم بتحويل الاهتمامات، وإذا تمكن الإنسان أن يحول اهتمامه من الدنيا ومتاعها إلى الله تعالى، وجعل اهتمامه للدنيا تبعاً لمرضاة الله تعالى وأمره ونهيه. . كانت صلاته إقبالاً على الله وذكراً لله وانصرافاً وانقطاعاً إلى الله.

إذن الخلفيّة النفسية لمسألة حضور القلب في الصلاة هي قضية الاهتمامات، وما لم يُحوّل الإنسان إهتماماته من (الأنا) إلى (الله) ومن (الدنيا) إلى (الآخرة)... لا يتمكن من أن يؤدّي الصلاة اداءً حَسَناً، بالإقبال والذكر والإنشداد.

ولاشكّ أن هذا الأمر صحيح في حدِّ نفسه، إلاّ أن ذلك وحده لا يكفي لتحضير القلب.

---

(١) الأعلى: ١٧.

٢ـ المنهج الثاني التركيز:

وهو محاولة التأمّل والتدبر في أعمال الصلاة وأذكارها والانتباه إليها. والى هذه المحاولة يشير الغزالي في إحياء العلوم، فيقول: (إذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك نداء يوم القيامة، وأعرض قلبك على هذا النداء، فان وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار، مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم انه يأتيك بالبشرى والنور يوم القضاء.

أمّا النّية، فإذا انطق به لسانك فينبغي ألا يكذبه قلبك، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله سبحانه، فالله يشهد انك لكاذب. وإذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك، ومترصّد لصرف قلبك عن الله حسداً لك على مناجاتك مع الله.

وإذا قلت ﴿**بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، فانْوِ به التبرّك وابتداء القراءة، وأفهم أن معناها أن الأمور كلها بالله. وإذا قلت ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ فاحضر في قلبك جميع أنواع لطفه...

ثم جدد الإخلاص بقولك ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، وحدد العجز

بقولك: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾)[١].

والى هذا المنهج يوصي جمع من أهل العرفان. وطبيعي إنَّ معاناة المصلّي في التركيز في أعمال الصلاة وأذكارها تخفّ كلما تمرّس الإنسان في هذا المجهود النفسي والعقلي اكثر، شأن كل جهد ومجهود، فكلما يتمرس الإنسان في عمل يخفّ عليه الجهد الذي يتطلبه ذلك العمل، حتى يقوى على ممارسته في يسر وسهولة، ومن غير جهد ولا مشقة.

والتركيز يفتح أبواباً من معارف القرآن والصلاة والذكر على قلب الإنسان، ومهما تدبّر الإنسان وأمعن في التأمل في معاني القرآن والصلاة والذكر فتح الله تعالى له من معارفها ما لم يعرفه من قبل.

٣ـ المنهج الثالث تفريغ القلب:

وهو منهج مألوف و معروف عند أرباب العرفان، وهذا المنهج يقرب من المنهج الأول.

واساس هذا المنهج أن قلب الإنسان إناء واحد لا يتّسع

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: كتاب الصلاة.

لذكرين واهتمامين يقول تعالى: ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾[١].

فإذا كان قلب الإنسان مشغولا بشواغل الدنيا فلا يستطيع أن ينصرف إلى ذكر الله تعالى، وتبقى هذه الشواغل تلاحقه، وتطارده حتى في صلاته. و هذه الشواغل على نحوين:

شواغل خارجيّة، وأخرى داخل النفس، والثانية أشق من الأُولى.

أمّا الشواغل الخارجية فهي ما يحيط الإنسان ويشغل باله مثل زخرفة مكان المصلّي و نقوش الفرش الذي يصلّي عليه الإنسان. ولذلك وردت الكراهة في زخرفة المساجد، واستقبال الصور والرسوم في الصلاة. وكان الصالحون يكرهون الصلاة في المواضع التي توجد فيها الصور والنقوش والزخارف.

وقد روى أنَّ أبا طلحة من أصحاب رسول الله ﷺ صلّى في بستان له فأعجبه طير حُشِر بين أغصان شجرة كثيفة

---

(١) الأحزاب: ٤.

الأغصان، يلتمس مخرجاً فلا يجده، فاتبعه بنظرة ساعة ثم لم يَدْرِ كم صلّى؟ فذكر ذلك لرسول الله. وقال يا رسول الله ﷺ هو (بستانه) صدقة(١).

وكان رسول الله ﷺ يكره أن يصلي في الثوب الملوّن. روي أن أبا جهم أهدى قميصاً عليها علم إلى رسول الله وصلى بها رسول الله ثم نزعها، وقال اذهبوا بها إلى أبي جهم(٢). وروى انه أُهدي إليه ﷺ ثوب ملّون، فصلى فيه ثم ردّه إلى صاحبه. وكان رسول الله ﷺ قد احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد فقال تواضعت لربي عزّوجل كي لا يمقتني ثم خرج فدفعها إلى أوّل سائل لقيه ثم أمر علياً عليه السلام أن يشتري له نعلين جرداوين.

وأهم من الشواغل الخارجية الشواغل الداخلية في النفس، وهي الاهتمامات التي تشغل المصلي عن صلاته وذكره، وتُشَتِّتُ باله، وتُكَدِّرُ صفاء نفسه، وَتُرْهِقُهُ بالطمع

(١) رواها مالك في الموطّأ ١: ٩٨ح٦٩.
(٢) أخرجها البخاري ١: ١٨٣.

والحسد والجشع وطول الأمل، وكل ذلك عوامل تعيق الإنسان عن صلاته، وتشغله عنها.

يقال أن أبا العباس الجواليقي كان يبيع الجوالق (الخُرج) في بدء أمره، فباع بعض ما عنده من الجوالق لشخص نسيئة، ولم يكتب اسمه، فحاول أن يتذكره فلم يقدر على ذلك.

فلما وقف للصلاة تذكره في الصلاة فذكر ذلك لغلام كان يعمل معه في محلّه. فقال له الغلام: وكيف تذكرته؟ قال: ذكرته في الصلاة. فقال له الغلام: كنت تصلي يا أبا العباس أم تبحث عن الجوالق؟ فتنبه أبو العباس إلى خطئه، وندم على فعله، وباع الجوالق والمحل وتفرغ للعبادة، وعُرف بالصلاح والتقوى.

وإذا كان أبو العباس قد وُفق في التخلص عن تعلقه بتجارة الجوالق للإقبال على صلاته ببيع المحل والجوالق مرة واحدة، فلم يوفق في المنهج الذي اتخذه لنفسه للتخلص عن تعلقه بتجارة الجوالق. فليس من منهج الإسلام أن يعتزل الإنسان الحياة الدنيا لكي يتخلص من التعلق بها.

فان هذا المنهج السلبي في التخلص من التعلق بالدنيا ليس

من الإسلام في شيء.

والمنهج التربوي في الإسلام للتخلّص من التعلق بالدنيا هو تمكين النفس من التحرر من العلاقة بالدنيا وتحصينها، وليس اعتزال الدنيا. فقد يرتبط الإنسان بالسوق والمجتمع والسياسة بشبكة من العلاقات فإذا قام إلى الصلاة، تمكّن أن يحجب نفسه مرة واحدة عن كل هذه الشبكة، ويقطع ما بينه وبينها.

تقول عائشة زوجة رسول الله ﷺ: كان رسول الله ﷺ معنا نحدثه ويحدثنا، فإذا حان وقت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه.

وهذا هو المنهج الصحيح. فقد كان رسول الله ﷺ يعيش في وسط المجتمع بكل همومه ومسائله فإذا وقف بين يدي الله، قطع مرة واحدة كل علاقة وصلة بينه وبين من حوله وما حوله.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله، وعاين بسرك عظمة الله، واذكر

وقوفك بين يديه يوم ﴿**تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ**﴾[(١)].

وإذا تمكن الإنسان أن ينتزع نفسه مرة واحدة من الدنيا استطاع أن يفرّغ قلبه للصلاة، ويقبل على الله في صلاته.

وقد كان يقول بعض أهل العرفان: «يقول الناس افتح عينيك لترى، وأنا أقول اغمض عينيك لترى». وهو كلام صحيح ودقيق؛ فأنَّ الإنسان إذا تمكن أن يحجب نفسه عن التعلّق بالدنيا وينتزع نفسه منها آتاه الله تعالى في صلاته الوعي والبصيرة وبصّره بما لا يبصر به الآخرون. ولكن قليل أولئك الذين يتمكنون أن ينتزعوا أنفسهم مرة واحدة من الدنيا إذا حان وقت الصلاة، ويجعلون بينهم وبين الدنيا عازلاً يعزلهم عن الدنيا مرّة واحدة إذا قاموا للصلاة ووقفوا بين يدي ربهم سبحانه وتعالى.

٤ـ منهج الخطاب:

عندما ننظر في كتاب أو نستمع إلى محاضرة قد نصاب

---

(١) ميزان الحكمة ٢: ١٦٤١.

بشـرود الـذهن، وكـذلك الأمـر عنـدما نقـرأ كتابـاً بصـوت مسموع. ولكن عندما نخاطب احداً أو نتلقى خطاباً مـن أحـد بالمواجهة لا نصاب بالشرود.

وهذه أربع حالات: يصيبنا الشرود فـي الحـالتين الأوليـين دون الأخيرتين. والسبب في ذلك هو وجـود عامـل الخطـاب في الأخيرتين، وفقدان الخطاب في الأوليين. فعندما يخاطـب الإنسان احداً يَشدُّه الخطاب إلى المخاطَب (بالفتح) وكـذلك عندما يتلقى من أحد خطاباً يشـده الخطـاب إلـى المخاطِـب (بالكسر).

من دون تكلف ولا معاناة ولا حاجة إلى التركيز.

وهذه حالة مشهودة ومحسوسة. فلا نحتـاج فـي الخطـاب إلى معاناة في التركيز ولا تأمّل فـي المفـردات. فـنحن نـتكلم مع الآخرين، وقد نلقي على الآخرين خطاباً يطول أو يقصـر، بترسّـل كامـل، ودون تكلـف ومعانـاة فـي التركيـز علـى المفـردات، وفـي فهـم الكلمـات. وكلّنـا نعـرف هـذه الحالـة ونشهدها في الخطاب الذي نوجهه إلى الآخرين وفيما نتلقـاه من خطاب الآخرين أي في (الخطاب الذي نوجهه والخطاب

الذي نستقبله). والسرّ في هذا الانشداد في الخطابين هو حالـة «الخطاب».

ففــي حالــة الخطــاب ينشــد الإنســان إلــى (المخاطَــب) و(المخاطِب) (بالفتح والكسـر)، بسـبب عامـل الخطـاب. إذن (الخطاب) من أهم عوامل إنشداد المخاطَب والمخاطِب.

وهذا اصل مهم نتوقف عنـده ونسـتفيد منـه فـي (الـدعاء) وأداء (الصلاة) وقراءة (القرآن).

النظرة المرآتية والموضوعية إلى الكلمات:

والكلمـات فـي الخطـاب مرايـا وأدوات لفهـم المعنـى، وينبغي أن يكون النظر إليها من قبيل نظر الإنسان فـي المـرآة عندما يريد أن يـرى نفسـه فـي المـرآة. وشـتّان بـين أن ينظـر الإنسان المرآة (كما لـو أراد أن يعـرف نـوع المـرآة ويختبـر زجاجها) وان ينظر بالمرآة كما لـو أراد أن ينظـر إلـى وجهـه في المرآة. والثانية هي النظرة المرآتية، وهي التي يسـتخدمها الإنسان في استعمال الكلمـات أو يلقيهـا فـي الخطـاب. وأمـا النظرة الأُولى إلى الكلمات (وهـي النظـرة الموضـوعية). فـلا تنفع المـتكلم أو المسـتمع فـي الخطـاب، وقـد تضـر وتشـغل

الإنسان عن الخطاب في الحالتين (توجيه الخطاب أو تلقي الخطاب).

والتركيز في الخطاب قد يحول نظرة الإنسان إلى الكلمات من حيث لا يعلم من النظرة المرآتية إلى النظرة الموضوعية. وعندئذ لا يكون هذا التركيز نافعاً في الانشداد إلى الخطاب، بل قد يضر، ويحجب الإنسان عن الخطاب.

وعليه فان التركيز الزائد بالتكلُّف في الكلمات قد يؤدي دوراً عكسياً في انشداد الإنسان إلى الخطاب، بعكس حالة الترسل في أداء الكلمات وتلقيها إذا اقترنت بحالة الخطاب.

سأل أحد الصالحين (السيد الحدّاد) بعض العلماء كيف تصلي؟ فقال له: ابذل جهداً كبيراً في التركيز على أذكار الصلاة والتأمل فيها؟ فسأله العبد الصالح: فمتى تصلي إذن؟ وهذه حقيقة عميقة على بساطة السؤال والجواب، فان الإفراط في التركيز قد يحوّل من حيث لا يشعر الإنسان نظره منَ النظرة الآلية والمرآتية إلى النظرة الموضوعية، فيعيق الإنسان عن صلاته.

الخطاب الصاعد والنازل:

وإذا عرفنا أنّ عامل (الخطاب) له دور كبير في إنشداد الإنسان إلى (الصلاة) و(الدعاء) و(القرآن)... لابدّ أن نشير إلى أن الخطاب على نحوين:

الخطاب الصاعد من العبد إلى الله

والخطاب النازل من الله تعالى إلى العبد.

والخطاب الصاعد هو (الصلاة) و(الدعاء)، وهو القرآن الصاعد. والخطاب النازل هو (القرآن) النازل من عند الله على الناس.

فالذي يصح في الصلاة يصح في الدعاء فان الصلاة والدعاء في جوهرهما خطابان صاعدان من العبد إلى الله تعالى. والذي يصح في (الصلاة) و(الدعاء) يصح في قراءة القرآن، فان القرآن خطاب نازل من الله تعالى إلى عباده.

وهذه القراءات الثلاثة تشترك في أصل الخطاب، ويتميز (القرآن) عن الدعاء والصلاة انه خطاب نازل من عند الله دون الصلاة والدعاء. فإذا استشعر الإنسان عنصر الخطاب في (الصلاة) و(الدعاء) و(القرآن) سواءً كان الخطاب إلى الله أو

من الله تعالى فان عنصر الخطاب يشده إلى الصلاة والدعاء والقرآن.

استشعار الخطاب (من) و(إلى) الله :

واستشعار الخطاب من الله، والى الله من شأنه أن يشد الإنسان إلى الخطاب من دون تكلف ومعاناة.

والصلاة خطاب صاعد من العبد إلى الله.

وخطابات الصلاة كلها أو أغلبها من هذا القبيل. نحو ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾. أو خطاب بالمدح والثناء والحمد نحو: ﴿**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ أو خطاب تعظيم نحو (سبحان ربي العظيم وبحمده). أو خطاب تكبير وتأليه وتسبيح وتحميد نحو (سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله اكبر).

وهكذا سائر الأذكار في الصلاة من خطاب العبد لله تعالى. والدعاء كله من خطاب العبد لله تعالى. تأمّلوا هذا الدعاء مثلاً: (اللهم انّي أسألك برحمتك التي وسعت كل

شيء وبقوتك التي قهرت بها كل شيء و خضع لها كل شيء.. اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء)[١].

والقرآن خطاب الله تعالى إلى عباده. وما من شيء ألذ إلى قلب المؤمن من أن يُصْغي إلى خطاب الله تعالى له في القرآن.

وقد روى عن بعض الصالحين انه كان يقول: قرأت القرآن حتى أحسست أن الله تعالى يخاطبني به فما وجدت شيئاً ألذ إلى قلبي منه ولا أكاد اشبع منه ولا اصبر على مفارقته.

وليس للقلوب المؤمنة لذة اكبر من أن تُصْغي إلى خطاب الله تعالى المباشر لها.

و هل هناك لذة للنفوس المؤمنة أعظم من أن تتلقى من عند الله تعالى خطاباً مباشراً مثل قوله تعالى للمؤمنين:

---

(١) من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي علمه لكميل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٥].

فإذا استشعر المؤمن خطاب الله تعالى له في القرآن، وخطابه له تعالى في (الصلاة) و(الدعاء) لم يصرفه عنه شيء، ولا يجد أمراً ألذّ إلى قلبه وعقله منه، ولا يعيقه عن الانشداد به شيء.

---

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

(٤) النساء: ١٣٥.

(٥) المائدة: ٣٥.

عوامل الإحساس بالخطاب الإلهي:

والآن نتساءل ما هي العوامل التي تُشْعر الإنسان بالخطاب الإلهي في (الصلاة) و(الدعاء) وقراءة (القرآن).

ولست أريد الدخول الآن في هذا البحث فهو بحث واسع لا يسعه هذا المقال. ولكنني أُشير إلى عامل واحد فقط من عوامل الإحساس بالخطاب الإلهي. وذلك هو وعي حضور الله تعالى.

والإيمان بحضور الله تعالى من شروط الإيمان بالله، ولكن وعي الحضور الإلهي من مراتب الإيمان العالية، وقليل هم أولئك الذين يستشعرون حضور الله بشكل دائم في الخلوات والجلوات. فإذا استشعر العبد حضور الله تعالى وجد في الخطاب الإلهي لذة لا تفوقه لذة، ولا يكاد يصبر عليها.

وأيّ لذة اعظم من أن يخاطب الإنسان رب العالمين بضمير الخطاب الحاضر ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾. أو يُصْغي إلى خطابه تعالى له: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ**

أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١].

وإنما يغيب قلب المصلي عن هذا الخطاب الصاعد إلى الله أو ذاك الخطاب النازل من عند الله لأن الإنسان لا يعي بعمق وبصورة قوية حضور الله تعالى.

وقد أولى القرآن اهتماماً كبيراً بمسألة تحسيس الإنسان بحضور الله تعالى، وجعلها من أُسس بناء الشخصية الإيمانية. يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[٢].

ويقول تعالى: **﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾**[٣]. وهو من أرق التعبير وألطفه في الحضور الإلهي، وفي تحسيس الإنسان بحضور الله.

ويقول تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ**

---

(١) الصف: ١٠.

(٢) سورة ق: ١٦.

(٣) الأنفال: ٢٤.

وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

آثار وبركات وعي الحضور الإلهي في حياة الإنسان:

ولهذا الوعي بركات كثيرة وعظيمة في حياة الإنسان: منها الإحساس القوي النافذ بخطاب الله تعالى، ومنها الخشوع في الصلاة، والخوف والرهبة من الله تعالى، ومنها الشوق إلى الله والأنس بالله وحب الله، ومنها التوكل على الله والثقة بالله، والأنس بذكر الله، وعدم الاستيحاش من الانفراد والوحدة، ومنها المراقبة، وهي من أهم عوامل تنظيم وضبط السلوك، ومن أُسس المنهج التربوي في الإسلام. فإن الإنسان إذا أحسّ بشكل قوي بحضور الله تعالى، تملأ نفسه الرهبة والخوف من عند الله القوي المتعال. وإذا شعر الإنسان بحضور الله ومعيته تعالى للإنسان في كل حالاته **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**(٢). يشعر

(١) المجادلة: ٧.

(٢) الحديد: ٤.

شعوراً قوياً بالرقابة الإلهية على سلوكه، بل على ما توسوس به نفسه ﴿**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**﴾، مما لا يكاد أن يطلع عليه أحد غير الله... وعندئذ يراقب الإنسان بنفسه سلوكه وينظّمه و يضبطه.

وإذا شعر الإنسان في صلاته بالحضور والمثول بين يدي الله، وامتلأت نفسه بجلال الله وحضور الله، ثم وقف بين يدي الله تعالى ليرفع خطاب العبودية والدعاء والحمد والتسبيح إلى الله، يغلبه لا محالة الخشوع في الصلاة.

وإذا وعى الإنسان حضور الله تعالى، وتجسّد له جمال الصفات والأسماء الحسنى يهيم بذكر الله، وتمتلئ نفسه بحب الله والشوق إلى الله والأنس بذكر الله تعالى حتى لا يكاد أن يشبع من ذكر الله، ولا أن يصبر على مفارقة الذكر والصلاة.

الجهد النفسي الذي يتطلبه وعي الحضور:

ولاشكّ أنَّ وعي الحضور، بصورة قوية واضحة، كما ذكرنا، أمر عسير وصعب، ولا يناله الإنسان إلاّ بجهد ومعاناة نفسية كبيرة. ولكن كلما تمرّس الإنسان في هذا المجهود، كما ذكرنا قبل قليل، تقل درجة المعاناة وتزداد درجة

الوضوح والقوة في هذا الوعي، كأي جهد ومجهود آخر في حياة الإنسان، حتى يكون وعـي الحضـور الإلهـي امـراً يسـيراً للإنسان، ويعي الإنسان حضور الله معه فـي خلواتـه وجلواتـه، كما يعي بعضـنا حضـور الـبعض، بوضـوح وقـوة، ومـن دون حاجة إلى معاناة.

وعي الخطاب الإلهي:

إذن وعي الحضور الإلهي مفتاح وعـي الخطـاب الإلهـي. وهو مفتاح كنوز الصلاة؛ فإذا وعى الإنسان حضور الله تعـالى القـوي الفعّـال المطلـق، والـذي لا يشـوبه غيـاب... استشـعر الإنسان بقوّة خطاب الله تعالى (الصـاعد والنـازل). واستشـعار خطاب الله يشدّ الإنسان المؤمن بخطاب (الصـلاة) و(الـدعاء) و(القرآن). وهذا الانشداد يحصل بصـورة طبيعيـة، ومـن غيـر تكلف ولا معاناة كبيرة ولا جهد.

فإذا انشد الإنسان بصلاته، وتفاعل معها، وتفهّمهـا فتحـت له الصلاة كنوزها التي أودعها الله فيها، فيجد الإنسـان عندئـذ في صلاته من فيوض الوعي والاشراق والمعرفة من الله، ما لا يكاد يفارقها.

وقد كان رسول الله ﷺ يقول عن لذّات الصلاة: (جعلت قرة عيني في الصلاة)[١].

ولما طلب الإمام الحسين عليه السلام ليلة العاشر من جيش بني أُميّة أن يُمْهلوهم للصباح ليتفرغوا للصلاة إستشهد الله تعالى وقال: (اللهم انك تعلم أني احب الصلاة)[٢]. وهذا المنهج في حضور القلب في الصلاة هو أيسر المناهج وافضلها إذا طلبه الإنسان من موارده الصحيحة.

العوامل المساعدة لحضور القلب:

وهذا الذي ذكرناه من المناهج هو العامل الرئيسي لحضور القلب في الصلاة وهناك إلى جانب ذلك عوامل فرعية مساعدة لتحضير القلب نذكر أهمها على سبيل الإيجاز والاختصار. وللتوسعة في ذلك مجال آخر... غير هذا المقال.

ومن العوامل المساعدة: الأذان في الصلاة، فان أذكار الأذان وفصوله تعد الإنسان للحضور بين يدي الله تعالى في

---

(١) كنز العمال ٧: ٢٨٦ح١٨٩١٢.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٤ .

الصلاة بصورة موحية وقوية.

ومن ذلك الاستعاذة، قبل الدخول في الصلاة، وبدء الدخول في الصلاة قبل قراءة الفاتحة.

فانّ للشيطان – لعنه الله – دوراً كبيراً ورئيسياً في إلهاء الإنسان عن صلاته، فإذا استعاذ الإنسان بالله تعالى في صلاته من الشيطان منع الله تعالى الشيطان عنه، وحجبِ الشيطان عنه بشرط أن تكون الاستعاذة لجوءاً حقيقياً إلى الله تعالى من هذا العدو الخبيث الذي يحاول حجب الإنسان عن الله.

وإذا كان المصلي صادقاً في لجوئه إلى الله واستعاذته بالله تعالى من الشيطان... أعاذه الله تعالى لا محالة من اللعين، وحماه منه. يقول تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾[1]. ويقول تعالى عن الاستعاذة بالله من الشيطان إذا أراد الإنسان أن يدخل في رحاب كتاب الله: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ**

---

(١) الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

باللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١).

ومن العوامل المساعدة الزمان والمكان. فقد فضل الله تعالى بعض الأرض على بعض، كما فضل الله تعالى بعض الأيام على بعض. وابتغاء هذه (البقاع) و(الأيام) للصلاة والدعاء، والذكر وقراءة القرآن ينفع كثيراً في تحضير القلوب الشاردة إلى ذكر الله.

ومن هذه البقاع المساجد، ومن أفضلها المسجد الحرام والمسجد النبوي في المدينة والمسجد الأقصى ومسجد الكوفة، ومنها مراقد أولياء الله، والصالحين، ومراقد أهل البيت وبشكل خاص الحائر الحسيني، ومن أفضل هذه البقاع وادي عرفة يوم عرفة حيث تصبّ رحمة الله تعالى على الحجاج فيها صباً من غير حساب. ومن هذه الأيام والليالي ليلة الجمعة ويومها وليلة القدر، ويوم عرفة وشهر رمضان، وليلة النصف من شعبان، ولسنا نعلم نحن السر في اصطفاء

---

(١) النحل: ٩٨ ـ ٩٩.

هذه البقاع والأيام للذكر و العبادة، ولكننا نشعر بشكل واضح أن لهذه البقاع والأيام تأثير واضح على إقبال القلوب على العبادة، وانفتاحها على الله تعالى في الذكر والصلاة والدعاء، وقراءة القرآن.

الخلوة والاجتماع:

ومن العوامل المساعدة لتحضير القلوب للصلاة (الخلوة) و(الاجتماع)، وكل منهما ينفع في إقبال القلوب على الله تعالى.

ففي الخلوة لا يجد الإنسان ما يشغله عن ذكر الله، فينصرف قلبه إلى ذكر الله. ولذلك ورد التأكيد في القرآن الكريم على الاستغفار في الأسحار. وورد التأكيد في الروايات على اختيار الأسحار للاستغفار والصلاة. يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ**

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[(١)].

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[(٢)].

والدعاء والصلاة والاستغفار في الأوقات كلها حسن، ولكن للصلاة والاستغفار في الأسحار وقع في النفس وتأثير في انفتاح القلوب والعقول على الله، لا يشابهه وقت آخر. وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدء الرسالة أن يقوم الليل نصفه أو ينقص منه للصلاة والعبادة. يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً* إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾[(٣)].

---

(١) آل عمران: ١٦ ـ ١٧.

(٢) الذاريات: ١٥ ـ ١٨.

(٣) المزمل: ١ ـ ٦.

والله تعالى يسمي الليل بـ (الناشئة)، وهي التي تنشأ الإنسان انشاءً، وتصنعه، وتوّطئ شخصيته، و تقوّم منطقه و هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. وتعدّ ناشئة الليل الإنسان للقيام بالقول الثقيل والعمل الصعب في النهار، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾.

ولست أقول إنَّ هدوء الأسحار وخلوتها هي كل السر في التأكيد على الأسحار، ففي الأسحار اكثر من سر، وأكثر من دور في تشييد شخصية الإنسان و بناء نفسه، ولكن لهدوء هذا الوقت دور بلاشك في فضيلة هذا الوقت وقيمته. وعلى العموم فانَّ الإنسان في الخلوات يجد في نفسه من الإقبال على الله ما لا يجدها في الاجتماعات. وليس كل اجتماع يضر بإقبال الإنسان على الله تعالى.

فانَّ للاجتماعات الموجهة، المعدَّة للذكر والصلاة والعبادة تأثير خاص في إنشداد الإنسان بالذكر وانفتاحه على الله تعالى. ولذلك ورد التأكيد في حضور الجماعات، وأوجب الله على الناس حضور الجماعات والحج في حشود المؤمنين. ويلمس الإنسان في مثل هذه الاجتماعات الموجهة المعدَّة للصلاة والذكر والعبادة، في نفسه من الإقبال على الله

والانفتاح ورقّة القلب والتفاعل مع الذكر ما لا يجده في غيره. وكأنَّ تفاعل الإنسان مع الذكر والصلاة يتم في مثل هذه الاجتماعات بقوة (الجمع)، وليس بقوة الفرد، كما في الخلوات.

وعلى العموم فانَّ لكل من الخلوات والاجتماعات الموجهة دور في ترقيق القلوب، وتفاعل الإنسان مع الذكر والصلاة، وإقبال الإنسان على الله. ولكل من (الخلوة)، و(الاجتماع) دور ونكهة وتأثير ليس للآخر، في الإقبال على الصلاة، والعبادة والانفتاح على الله إذا كان الاجتماع موجّهاً. وقد لا نجانب الحقيقة إذا قلنا أنَّ مذاق الشريعة هو أداء الفرائض في الاجتماعات الموجهة، وأداء النوافل في الخلوات.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا إقامة الجماعات والجُمُعات والحج في جماعة المسلمين، ويرزقنا المناجاة والاستغفار في الأسحار والخلوات، ويهبنا في صلواتنا لذة وقرة عين، ويجعلنا من مقيمي الصلاة.

الفهرس